



● مرقا بيروت أثناء القصف الإيطالي

العثمانيون وعالمهم المتوسطي:

باروميتر القوة والضعف

عقدت في الفترة ما بين ١٨ إلى ٢٠ نيسان عام ٢٠٠٢ ندوة «العثمانيون والعالم المتوسطي: مقاربات جديدة» بدعوة من شعبة التاريخ - وحدة التكوين والبحث: المغرب والعالم العربي - الإسلامي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس أكاد. ويمثل هذا المؤتمر أحد الاتجاهات الجديدة في التاريخ العثماني، التي تقوم على إعادة دراسته برؤية معاصرة، واستخلاص العبر منه واستشراف المستقبل. وساد المؤتمر أجواء مقارنة التاريخ العثماني بموضوعية وحيادية، والوعي بأهميته وعبره بعيداً عن التحامل والعصبية والأينية. ومما يميز المؤتمر كثرة المؤرخين الشبان، سواء من المغرب أو من خارجها، والمأمع معظمهم باللغة العثمانية، فضلاً عن اللغات الأوروبية، وعلمهم على الوثائق العثمانية.

شارك في المؤتمر ثلاثون باحثاً وباحثة يمثلون بلدان المغرب وليبيا وتونس ولبنان وتركيا وألمانيا. استمت الندوة بأجوائها العلمية، وتعترف العلماء المشاركون إلى بعضهم بعضاً، وتناقشوا معاً خلاصات أبحاثهم واستنتاجاتهم، معتبرين أن ما توصلوا إليه ليس نهاية المطاف في مسيرة السير عن التاريخ العثماني، وعلاقة الدولة العثمانية بعالمها المتوسطي وولاياتها العربية ورعاياها.

تكمن أهمية المؤتمر في القراءات الجديدة التي قدمها الباحثون لموضوعات عدة في التاريخ العثماني تحورت حول البحر المتوسط. فانتسجت المداخلات إلى محاور زمنية ثلاثة: القرن السادس عشر، الذي اعتبر في معظمه عصر قوة للدولة العثمانية؛ القرن السابع عشر، وهو ما يتفق عليه أنه عصر الأزمة، أي بداية إدراك الدولة العثمانية أن ثمة خللاً أخذ يتفشى في جسمها؛ والقرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث شكّل القرن الأول بداية ما سمي بالمسألة الشرقية، فيما اعتبر القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عصر ذروة الإخترافات الأوروبية في شتى مجالات الحياة العثمانية، رافقته محاولات إصلاح قوية للنخب العثمانية.

ولناحية الموضوعات، انتسجت المداخلات إلى تسعة محاور بحثت في علاقة العثمانيين بجيرانهم في العالم المتوسطي، وصورة العثمانيين في الأدبيات التاريخية الإسلامية، وإشكاليات الهوية والحدادة والأزمات التي عشت بالدولة. كما تناولت مداخلات أخرى موضوعات كالاخترافات المالية الأجنبية في الاقتصاد العثماني، وعلاقة الدولة العثمانية بولاياتها العربية في المشرق والمغرب العربيين، وأخيراً دور العثمانيين في الصراعات الدولية. وتخللت هذه المداخلات قراءات جديدة للأدبيات

المعاصرة للحكم العثماني.

وفي شأن المحور الأول، افتتح الجلسة الدكتور عبد الجليل التيمي (كلية الآداب، تونس) بمدخلة قيمة حول إشكاليات القرن السادس عشر الميلادي بالنسبة لعلاقة الدولة العثمانية بعالمها المتوسطي. فقارب المسألة من زوايا مختلفة، كاشفاً النقاب عن كثير من الموضوعات التي لا تزال تحتاج إلى مزيد من البحث والتحصيل. وختم بتوصيات قيمة تشكل انطلاقة موضوعية لتاريخ علمي عربي رصين ومستمر.

وفي المحور الثاني، اتفق الباحثون على قوة السلطنة العثمانية البحرية في المتوسط خلال القرن السادس عشر في تصديدها للقوى البحرية المسيحية. فأظهر مصطفى الغاشي (كلية الآداب، تطوان) قدرة الدولة العثمانية على التحول من دولة برية إلى دولة بحرية تقارع الأساطيل الأجنبية في مياه البحر المتوسط وفق استراتيجية محددة. ومن جانبها، رصدت الباحثة فاطمة الزهراء نظام (كلية الآداب - المحمدية) الصراع البحري العثماني - الأوروبي في أبعاده السياسية والاقتصادية والدينية مركزة على التعاون الذي تم ما بين العثمانيين والسعديين في غرب البحر المتوسط من أجل جعل هذا البحر «بحيرة إسلامية». ورأت أن معركة ليبانتو لم تشكل مفصلاً لنهاية النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط والهيمنة عليه، مقدمة الدليل على ذلك بحركة البحرية العثمانية أمام سواحل تونس في السبعينات من القرن السادس عشر. على عكس ذلك، رأى حسن أميلي (كلية الآداب، المحمدية) أن معركة ليبانتو أنهت تآلق البحرية العثمانية، حيث أعقبها تراخ نتيجة إصابة البحرية العثمانية بضعف تقني ومادي، مما أفسح في المجال أمام ديولات شمال أفريقيا لتطوير أساطيلها الخاصة بواسطة الأسرى الأوربيين الذين سبق ووقعوا في أيديها.

وفي الجلسة الثالثة، قدم ثلاثة باحثين وباحثة واحدة صوراً شتى عن العثمانيين في الأدبيات الإسلامية. فألقى محمد الحيمر (باحث، المحمدية) الضوء على كتاب ابن أبياس بدائع الزهور، الذي أרך للمرحلة الانتقالية من الحكم المملوكي إلى الحكم العثماني في بلاد الشام ومصر، وأعطى وصفاً دقيقاً عن الدولة القديمة والدولة الجديدة، والمواقف الشعبية منهما، وكيف أن ابن أبياس قدم صورة مبالغاً فيها عن السلطان العثماني. وفي المغرب العربي، شكّل العثمانيون نموذجاً لذلك الآخر، كما جاء في مداخلة خالد شكراوي (كلية الآداب، سايس فاس). ولفت هذا الباحث إلى محاولة الأدبيات المغربية مقارنة الأنا بالأخر العثماني في النواحي القيميّة وغيرها، منطلقة من الأحداث

التي شهدها العالم المتوسطي سياسياً واقتصادياً. وعلى ما يبدو، فإن الأوضاع في المتوسط الغربي، ودعم داي الجزائر القروسنة ضد إسبانيا، نشطت الاتصالات الدبلوماسية ما بين المغرب والدولة العثمانية من أجل إعادة الهدوء إلى تلك المنطقة. هذا ما جاء في مداخلة محمد بوكبوط (كلية الآداب، سايس فاس). وختمت مليكة الزاهدي (كلية الآداب، المحمدية) الحديث في هذا المحور بمدخلة حول صورة العثمانيين عند مؤلفين مغربيين منفصلين، ورأت أن أهم ما جاء فيهما هو اللقاء الضوء على خصوصية العلاقات العثمانية - المغربية في عصر السلطان محمد بن عبد الله فضلاً عن تقديم وصف دقيق لمقاتلها، كل على انفراد، بالسلطان العثماني، ووصف الديوان العثماني ومدنية الأستانة.

الهوية والأزمة والحدادة، كانت جميعها موضوعات المحور الرابع. فتناول عبد الرحيم بنحادة (كلية الآداب، الرباط) كيفية تعاطي الكتائبين مصطفى علي وكتائب جليبي مع أزمة السلطنة العثمانية في القرن السابع عشر. وفقد الباحث أهمية الكتائبين لاعتمادها على الأسلوب التقدي للأوضاع العامة في الدولة العثمانية، وتوجيهها للنصح والإرشاد للحكام العثمانيين حول ضرورة ولوج طريق الإصلاح إذا ما أرادوا إعادة البلاد إلى عصرها الذهبي. وعلى عكس ما هو متداول، خصص عبد الرحمن المودن (كلية الآداب، الرباط) إلى اعتبار السلطنة جسراً للحدادة إلى العالم الإسلامي. وقدم الأدلة على ذلك من خلال الإصلاح العسكري الذي اقتبسها عنها المغرب في القرن الثامن عشر، فضلاً عن اقتباس نظمها الاقتصادية، وصولاً إلى إعادة صياغة المغرب رؤى جديدة لعلاقاتها الخارجية أسوة بما فعله العثمانيون.

أما بيتينا درلاين (جامعة برلين الحرة، ألمانيا)، فبحثت في مسألة الشرعية الدينية للسياسة في المغرب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، منطلقة من الفتاوى التي أصدرها علماء مغاربة عام ١٩١٤ لمصلحة خلافة مغربية. ورأت الباحثة أن هذه الشرعية الدينية كانت متجهة نحو الداخل = توطيد سلطة سلطان المغرب، وليس نحو الخارج، أي منافسة العثمانيين.

وفي المحور الخامس، تحدث عبد الكريم مكنون (كلية الآداب، أكادير) عن القانون المختلط في دول من مصر والدولة العثمانية. فقارن بين قانوني ١٨٢٧ و ١٨٧٣، نصحاً بروحاً وعلاقتهم بالقوانين الغربية، وخصوصاً الفرنسية منها. ورأت أن فرنسا عمدت إلى قراءات مختلفة لنصوص القانونيين كي تتسجم مع تطور مصالحها الاقتصادية بكل من مصر والسلطنة.

عبد الرؤوف سنو(*)



● سفينة حربية عثمانية أصابها الصنف

السلطنة قضية المغرب في الاستقلال، واعترفت بذلك عام ١٩١٤.

١- وفي ختام المؤتمر قدمت خلاصة أعمال المؤتمر، والتوصيات التي اقترحتها الزملاء المؤتمرون، وهي:

١- إنشاء مراكز للبحث العلمي عن التاريخ العثماني في الجامعات العربية، ومن قبل مؤسسات خاصة، وتأمين التمويل لها.

٢- وضع استراتيجية بحث علمي عن التاريخ العثماني.

٣- عدم اختزال مرحلة التاريخ العثماني فكرياً وتدويناً بالتاريخ العربي مهما كانت هناك من سلبيات، والدعوة إلى رؤية موضوعية في عملية التاريخ، وعدم الاستسباق وراء أحكام وآراء جاهزة تجعل من العثمانيين مجرد مغتصبين ومتسلطين.

٤- تعديل المناهج في الجامعات العربية من أجل إعادة بناء معرفة لطلابنا وتمكينهم من المعارف وأدوات المعرفة والبحث الضرورية، وفي مقدمها معرفة اللغة العثمانية واللغات الأجنبية؛

٥- عدم اقتصر أبحاثنا على الموضوعات السياسية والعسكرية، بل التفرغ إلى جوانب أخرى في البحث العلمي؛

٦- القيام بدراسات عمودية لموضوعات محددة مهمة، والابتعاد عن الدراسات الأفقية التي تبعد البحث عن الاستنتاجات المعمقة. ومن الموضوعات المقترحة: الأقليات، المجتمع، الإدارة، الاقتصاد، الثقافة؛

٧- ترجمة الأعمال التاريخية المهمة المرتبطة بموضوع العثمانيين والعالم المتوسطي؛

٨- إيجاد آليات أكثر سهولة للتواصل بين الباحثين العرب؛

٩- وضع بيبليوغرافيا مغربية حول الدولة العثمانية؛

١٠- الاهتمام بمكتباتنا العربية ودور الوثائق وأرشفتها وتصنيفها وتبويبها، ووضعها في تصرف العلماء والباحثين دون قيود أو عراقيل؛

١١- الاهتمام بموضوع الهجرات المغربية إلى بلاد الشام في العصر الحديث، وتتبع أسبابها وكيفية حدوثها ومسارها، وكيفية انصهار الأسر المغربية في المجتمع الشامي.

(*) عيد كلية التربية في الجامعة اللبنانية.

مع الخلافة العثمانية، ومن تلغهم إلى ألمانيا بعد عام ١٩٠٠ (زيارة امبراطور ألمانيا إلى طنجة)، وتحديد منذ فرض فرنسا حمايتها على المغرب عام ١٩١٢. كما تطرق إلى الدعاية الفرنسية المضادة، والتي بلغت ذروتها بصور فتاوى عن علماء مغاربة لمصلحة خلافة في شخص سلطان المغرب، بهدف نزع الشرعية عن السلطان العثماني.

وختم الحديث في هذا المحور محمد البكراوي (كلية الآداب، طهر المهرزاق فاس) بعدا خلافة حول العلاقات العثمانية - المغربية خلال الحرب العالمية الأولى. فعرض لأهمية المغرب الاستراتيجية والجيوسياسية في الصراع الدولي وفي محيطه الإقليمي. وتحدث عن الدعاية الألمانية - العثمانية المشتركة في المغرب لتخريص على الثورة واشغال الجيش الفرنسي هناك. ومن أجل استراتيجية حربية، دعمت

وفي المحور التاسع والأخير، تحدث كاتب هذه السطور (الجامعة اللبنانية، لبنان) عن سياسة ألمانيا الإسلامية في المتوسط، بدءاً بمحاولات بسمازك استخدام صفة السلطان العثمانية كخليفة لحماية الاستعمار الألماني في أفريقيا، والتقريب ما بين السلطنة والمغرب الأقصى بهدف إزاح فرنسا هناك. كما تحدث عن تطور سياسة ألمانيا الإسلامية في الشرق والمغرب العربيين أثناء عصر وليم الثاني، التي وصلت إلى ذروتها بمحاولات تخريص العالمين العربي والإسلامي على دول الوفاق الودي أثناء الحرب العالمية الأولى. وخلص الباحث إلى أن هذه السياسة فشلت في تحقيق أغراضها. وفي المقابل، تحدث جامع بيضا (كلية الآداب، الرباط) عن الدعاية الفرنسية ضد الدولة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى. ورأى أن فرنسا كانت تخشى قبل الحرب من تعاطف المغاربة



● لوحة تمثل حصار القسطنطينية

٤ وقد أعادنا محمد حاتمي (كلية الآداب، سايس فاس) في هذا المحور إلى إشكالية العلاقة ما بين العرب والترك، مشيراً إلى تحكم العواطف والإيديولوجيات في عملية التاريخ لدى الباحثين من الجانبين. ثم بين إشكالية مساعي العثمانيين لإبقاء على حكمهم على العرب باسم الرابطة العثمانية، والمشاعر القومية للعرب، خصوصاً بعد تلاشي إيديولوجية الجامعة الإسلامية بسقوط السلطان عبد الحميد، وصعود الاتحاد والترقي إلى السلطة وطرحه شعار الأمة التركية.

وفي محورين منفصلين (السادس والسابع)، عالج باحثون علاقة المركز بكل من مصر والمغرب على انفراد. وفي ما يتعلق بمصر، طرح محمد العاملي (كلية الآداب، بني ملال) تساؤلات حول البناء الاقتصادي المصري عموماً، ووضع الأرض ونظام الجباية خصوصاً. وخلص إلى أن العثمانيين تأثروا في هذه المسألة بالنظم التي سادت في الدولتين الأيوبيه والمملوكية. وبين أن السلطان سليم الأول اعتبر الأرض المصرية أرض خراج، وأن تطبيق نظام الالتزام على مصر جاء في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، ثم جرى الانتقال إلى نظام الاحتكار في عصر محمد علي.

ومن جهته، أعادنا محمد حواش (كلية الآداب، بني ملال) إلى الحملة الفرنسية على مصر من خلال التعاطي مع فرمانات ورسائل للسلطان سليم الثالث وجهها إلى زعامات عربية وإسلامية من أجل التضامن الإسلامي مع السلطنة لمواجهة فرنسا. وقد وصفت رسائل السلطان الثورة الفرنسية بأنها قوة شريرة وفاسدة. أما عزمي أوزجان (جامعة مرمره، استانبول)، فلفت الانتباه إلى أهمية مصر بالنسبة للسلطان عبد الحميد الثاني وبقائها تحت الحكم العثماني. وتطرق الباحث إلى شكوك السلطان العثماني على الدوام بمخططات بريطانيا تجاه هذه اللوية العزيزة، مشيراً إلى أن أكثر ما كان يزعج عبد الحميد الثاني هو مخاوفه من أن تقوم بريطانيا بنقل الخلافة إلى خديوي مصر. ومن هنا، لم يكن السلطان يثق بعرباي باشا ولا بالخديوي عباس حلمي الثاني، معتبراً أن بريطانيا تنفذ خلفها.

وفي الشق الثاني من المحور (المركز والولايات)، تحدث عبد الحفيظ الطليلي (كلية الآداب، الرباط) حول صورة السلطنة في المغرب في الكتابات التي ظهرت في الدولتين. ورأى أن المؤلفات العثمانية ركزت على العلاقات ما بين استانبول والولايات، ما حين ظل قليلاً ما تناولته هذه الكتب من معلومات حول المغرب. ورأى شبه غياب لتاريخ عثماني عن المغرب في القرن السابع عشر، ثم اعتبر أن ما قام به العثمانيون من دراسات حول أوضاع دولتهم كان أكثر عمقاً من تلك التي وضعها الأوروبيون. وأشار في هذا الصدد إلى كاتب جليلي تحديداً.

ومن جهته، ناقش إبراهيم كولير (جامعة موهلا، تركيا) الدور المميز لمنطقة جنوب غرب الأناضول في تزويد المغرب بالجنود. واعتبر أن انفتاح المنطقة غرباً، وقربها من مدينة أزمير، التي كانت نقطة تجميع للجنود اللواتي من مناطق أخرى، أضفا أهمية على دورها هذا. أما محمد أيد، (كلية الآداب، طهر المهرزاق فاس)، فتناول هجرة يهود ليفرنو إلى الجزائر في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، وكيف أنهم تحولوا إلى بورجوازية تجارية في الجزائر، ما لبثت أن لعبت دوراً تجارياً مميّزاً في مارسيليا وغرب أوروبا، عبر إقامة شبكات تجارية ووكالات نتجة ظروف داخلية في الجزائر وأخرى خارجية في أوروبا وغرب البحر المتوسط.

وختم الكلام في هذا المحور محمد أحمد الطوير (جامعة الفاتح، طرابلس)، الذي وضع تحت المجهر التاريخ الطويل للعلاقات العثمانية - الطرابلسية. ورأى الباحث أن هذه العلاقات مرت في ثلاثة عهود وسادها التقلب. وتحدث عن قهر الإنكشارية للسكان، وكيف أنه أدى إلى ظهور الأسرة القرمانلية. لكن احتلال فرنسا للجزائر جعل السلطنة تعيد حكمها المباشر على طرابلس عام ١٨٣٥، حيث عادت من جديد إلى فرض الضرائب الباهظة على الطرابلسيين، وبالتالي مقاومة هؤلاء لها إلى أن جاء الاحتلال الإيطالي للبلاد.